تعريف الحسن

هو عنوان فصلٍ من مؤلف جديد يعرَف بكتاب النجوى تأليف حضرة الاب العلامة الفاضل الخورفسقفوس جرجس شلحت السرياني الحلبي موضوعهُ « الصناعة والعلم والدين » اودعهُ من المعاني الفلسفية في هذه الاغراض الثلاثة ما تستنير بمشكاته الاذهان وتحلى بدرر الفاظهِ الآذان وقد رأينا ان نطرف القرآء ببعض ما انتهى الينا من شذراتهِ الرائقة تعريفاً بما تضمنهُ هذا السفر الجليل قبل بروزهِ وتشويقاً لنفوس المطالعين الى الظفر بمخبآت كنوزهِ . والفصل المذكور من « باب الصناعة » اوردهُ في صدر مباحثها وافتتحهُ بابياتٍ من نظم صاحب هذه المجلة كانت قد نشرت في مجلة الاجيال المشهورة . وهذا نص الفصل قال اعزهُ الله

وقائلٍ صِفْ لنا ما الحسنُ قلتُ لهُ ... هذا الذي ليس للتعريف فيهِ يدُ

لا يجهل الحسنَ ما بين الورى احدٌ ... وليس يعلم منهم كنههُ احدُ

سرٌّ يلوح ورآءَ الحِسّ مرتسماً ... في النفس وَهْوَ عن الادراك منفردُ

لكن ترى العينُ منهُ شكلَ حاملهِ ... وانما حظُّها مما ترى الجسدُ

يا نفس ان الحسن لموضوعٌ عامّ تلهج بهِ ألسنة الخلق في كل أينٍ وآن . فكثيراً ما تسمعين في الهيئة الاجتماعية اصواتاً مرتفعة طوراً تسلب الحسن عن اشياء وتارةً توجبهُ لاشياء كأنها محيطة باصولهِ وفروعهِ ومبادئهِ ونتائجهِ . وترَين بين القوم واحداً متولّهاً مشغوفاً لدى انعامهِ النظر في عجائب الطبيعة ومحاسنها . وآخر مرتاحاً مسروراً بخصال زيد المحبوبة ومشمئزًّا نافراً من خلال عمرو المكروهة . وآخر حائراً مدهوشاً عند اذ يسرّح سوام الطرف في صرحٍ شاهق البنيان ويجيل قداح النظر في دميةٍ او صورةٍ شائقةٍ للعيان . وآخر مقشعرًّا مستنكراً حين اذ

تطرق أُذنيه الحانٌ متدافعة ليست من الايقاع في شيء او اشعارٌ متوعّرة اللفظ قلقة التركيب مستهجَنة الاساليب . وآخرَ مستبشراً اثنآء استماعهِ خطبةً انيقة العبارة رقيقة المعنى رشيقة الاشارة دقيقة المبنى . وفي الجملة فلا ترَين احداً ايًّا كان من افراد الأُلفة البشرية الا يشعر بالحسن والقبح مميزاً بينهما في الخَلق والخُلق والصناعة قاطعاً بهما سلباً او ايجاباً كأن الحسن حقيقةٌ صريحة لا خفآء فيها

بيد انكِ اذا سألتِ أولي الذوق والذكآء من اولئك اللاهجين بالحسن عن اصلهِ وماهيتهِ ورسمهِ وحدّهِ يعودون أحير من ضبّ بعضهم يتلعثم وبعضهم لايحير جواباً كانهم بلسان الحال يقولون مقال القيصريّ[1] « الحسن شيءٌ يُدرَك بالذوق ولا يُوصَف » او يتمثّلون بقول الشاعر[2]

شيءٌ بهِ فُتِنَ الورى وهو الذي يُدعى الجمالَ ولستُ ادري ما هوَا

واذا اتجهتِ الى الحكمآء منذ عهد افلاطون الى هذا العصر وتصفحتِ مقالاتهم في الحسن الكثيرة العدد تُلفينهم في مباحثهم العويصة

---

(١) في شرحهِ تائية ابن الفارض . وورد في المثل السائر لابن الاثير ما نصه « شيئان لا نهاية لهما البيان والجمال » (٢) روى شهاب الدين الحلبيّ في صناعة الترسل قول الشاعر على هذه الصورة

شيءٌ بهِ فتن الورى غيرُ الذي يدعى الجمال ولست ادري ما هوا

بنآء على ان الجمال في البيان لا يدعى جمالاً وانما الجمال في الانسان والبنيان اما انا فعلى مذهب الفلاسفة القائلين بان الحسن اسم مشترك مشاع بين الفصاحة والصباحة يصدق على كل ما اعجب الناظر وخفّ على السمع وابهج الخاطر وامتزج بالطبع في الخلق والخُلق والصناعة . ولذلك أوردتُ البيت في المتن كما أوردتُ وتطاولتُ على صاحبهِ وأوجبتُ ما نفى وعكستُ ما عكستِ ومن ذاق عرَف ومن طالع هذا الفصل أنصف

متضاربي الآرآء متباييني المذاهب مُعظمهم ولا سيما فلاسفة المانيا يخوضون نحو الغُموض في مناحيهم المتناقضة المتفقة على القآء اصحابها والمنتحلين لها في خضمّ الابهام وهوّة الارتياب

اذا تبينتِ ذلك فاعلمي ان الحسن لا يُحَدّ على الحقيقة حدًّا وافياً . وقد علّم القديس أوغسطينوس السبب في ذلك فقال ما مفادهُ « يمكن أن يُحَسّ بالحسن ويُمَيَّز ويُتصوَّر ولا يمكن ان تُوضَح ذاتهُ من حيث ان الجمال كالحق والخير انما هو الله عينهُ . ولما كان تعالى لا يمكن ان تُعرَف ماهيتهُ نتج ان الحسن لا يمكن ان تُعرَّف حقيقتهُ » . وعليهِ فكل الحدود التي اتت بها الفلاسفة من قدمآء ومتأخرين هي ناقصة يدلّ أسدُّها على معناهُ النظريّ او على بعض خواصّهِ او شروطهِ لا على حقيقتهِ وما هيتهِ . وهآءنذا اورد لكِ هنا حدود اشهر العلمآء الباحثين في الحسن وأخصّ اقوالهم الشارحة لهُ فاقول

قال افلاطون « الحسن ضيآء الحق[1] » . ووافقهُ على ذلك القديس اوغسطينوس ورأى بسامي نظرهِ ان الحسن قائمٌ « بالوحدة المقترنة بالتنوُّع » قال « ان الوحدة هي صورة الحسن وذاتهُ في كل جنس » وأخذ إخذهما لامِناي فقال « الحسن في ذاتهِ انما هو مظهر الحق » وقال هاجل « الحسن اظهار التصوُّر حسياً » . وكأن هذا التعريف وتعريف جُفْرُوَى

(١) بعض المحققين يعزون هذا التعريف الى افلاطون و بعضهم الى بلوتينوس و بعضهم الى القدّيس اوغسطينوس . وفي حكمي أن نسبتهُ الى افلاطون أصحّ من حيث ان لهُ عليهما فضل التقدم في البحث عن الحسن وهما نسجا على منواله في ذلك والله اعلم

واحد وهو « الحسن مجلى الغير المنظور في المنظور » . وقال شالِنج « هو غير المحدود في المحدود » وقال كَنْط « الحسن ما يُعجب الخيال دون ان يضادّ شرائع العقل »

وقال ابن سينا « جمال كل شيءٍ وبهآؤهُ هو ان يكون على ما يجب لهُ » . وحذا حذوهُ الغزّاليّ حيث قال « كل شيءٍ فجمالهُ وحسنهُ في أن يحضر كمالهُ اللائق بهِ الممكن لهُ . فاذا كان جميع كمالاتهِ الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وان كان الحاضر بعضها فلهُ من الحسن والجمال بقدر ما حضر » . وقال وُلْفْ ما مفادهُ « ما يُعجبنا يسمى حَسَناً وحسنهُ قائم بالكمال وهو يروقنا بقوّة ذلك الكمال المتَّسم هو بهِ »

وعلَّم الفيلسوف تبعاً لسقراط هذا المبدأ الجليل وهو « لا حَسَن الا ما كان خيّراً [1] » . ووافقهما عليه آباء الكنيسة فقال القديس امبروسيوس « الجميل ما كان صالحاً » وكذا قال القديس ريونوسيوس واقليميس الاسكندريّ . وسأل نفسهُ القديس غريغوريوس النيصيّ قائلاً « ما الحسن » وعقَّب مجيباً « ما كان من كل وجهٍ جيداً شهيّاً »

ولقد احسن شمس المدارس اذ قال « ان الجميل والخير متحدان بالذات لابتنآئهما على شيءٍ واحد اسمه على الصورة ولهذا يوصف الخير بكونهِ جميلاً . ويقال جميل لِما يُعجب الناظر اليهِ فهو قائم بالتناسب المقتضَى » . وقال في محل آخر وما اجلّ قولهُ « يكون الشيء حَسَناً حين

(١) جآء في كتاب المقابسات لابي حيان التوحيدي ما نصهُ « كل خير حسن وليس كل حسن خيراً » . ولكن الحسَن حق الحُسن ينبغي لهُ أن يكون خيراً

اذ تتألق صورتهُ في خلال مادّةٍ كل اجزآئها متناسبة » . وقال السيّد بوسُوت « الحسن إنْ هو الا تناسبٌ او مساواةٌ او بالاحرى نوعٌ من الوحدة » وقال ايضاً « هو النظام المرئيّ » . وقال هتْشازون وتبّاعهُ ما ملخصهُ « الحسن تصوُّرٌ تنشئهُ في انفسنا اشيآء والشيء اذا كان على الحقيقة حَسَناً يكون ذا خيريّةٍ وصلاح وحسنهُ قائمٌ بالمساواة والتنوّع . والاشيآء المتساوية كلما كانت اكثر تنوّعاً ازدادت جمالاً وسنوعاً . والاشيآء المتنوّعة كلما كانت اكثر مساواة ترقّت في مدارج الحسن والبهآء » . وقال مَرْمُنْتال قولاً شارحاً عاماً سديداً وهو « الحَسَن كل ما يحوي في ذاتهِ ما يُولِدُ في العقل تصوّرَ التناسب »

وعلى الجملة فان الحسن انما هو الوحدة والحق والخير والكمال والنظام ساطعةً انوارُها ومشرقةً اضواؤها بين مظاهر الوجود منوّرةً للعقل مخاطبةً القلب مسترقّةً الارادة مؤثّرةً في المصوّرة وسائر القوى الباطنة مدهشةً الانسان كلّهُ وخاطفةً بَصَرَهُ وبصيرتهُ . يسمع وينظر فيُدرِك ويفهم فيحبّ ويعجب طائراً على اجنحة النجوى ناسياً نفسهُ في بحبوحة التأمل والانجذاب والتنعُّم . وهنا يجدر بي أن أُورد لكِ ما اتى بهِ في هذا الصدد الخطيب الخطير الاب لاكُرْدار جاعلاً مقالهُ مقامَ ختامٍ لهذا الفصل وذريعةَ تخَطٍّ الى الفصل التالي . قال « الجمال ظهورُ الوجود في النور والنظام والعظمة والجودة وهي صُوَرُ نورٍ ونظامٍ وعظمةٍ وجودةِ الله »